صفحات ونفحات

سبحانك هذا كتابك

بقلم : الدكتور محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الاداب بجامعة القاهرة

« هذا كتاب أنزلناه مبارك
« فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون »
(قرآن كريم)

دعنى ووصفى آيات له ظهرت ... ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم ... وليس ينقص قدرا غير منتظم
فما تطاول آمال المديح الى ... ما فيه من كرم الاخلاق والشيم
آيات حق من الرحمن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهى تخبرنا ... عن المعاد وعن عاد وعن ارم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيين اذ جاءت ولم تدم
محكمات فما يبقين من شبه ... لذى شقاق وما تبغين من حكم
ما حوربت قط الا عاد من حرب ... أعدى الاعادى اليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجانى عن الحرم
لها معان كموج البحر فى مدد ... وفوق جوهره فى الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها ... ولا تسام على الاكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له ... لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم

«بردة البوصيرى»

سبحانك هذا كتابك : وقفت معه وقفة هى احدى وقفات أربع فى سنوات خمس انجابت فيها الغواشي عن القلب واستضاءت بها النفس :وقفة كانت ببابك ، وهذه مع كتابك وثالثة عند سيرة أحب أحبائك ، ورابعة بين أحاديث أصفى أصفيائك ، وكنت تباركت وتعاليت فى كل وقفة من هذه الوقفات ، وفى كل لحظة من لحظات تلك السنوات ، عونى ومعاذى ، وحصنى وملاذى وكانت أنوار ذاتك ، وأسرار آياتك وأحوال حبيبك وصفيك ، وأقوال رسولك ونجيك ، هى البلسم الشافى من الجرح الدامى ، والسد الواقى من السهم الذى رمانى به الرامى ، وكان كل أولئك من نفس عبدك بمثابة المعين الذى استبصرته حتى بصرها ، والمعين الذى استنصرته حتى نصرها ،وكانت

نفس عبدك تجد فى كل أولئك مايغذيها بالحزم والعزم وما يقويها على البغى والظلم ، ذلك بأنك وقد تحققت ذاتك العلية بأسمى معانى الحق والخير والعدل والكمال ، لاترى عبدا من عبادك قد غلبه على أمره الباطل والشر والظلم والنقص الا كنت له منصفا ومن خصومه منتصفا ، والا كنت له وليا ونصيرا على الباطل وتفنيده ، وظهيرا على الظلم وتبديده ، والا أريته برهانك الذى لايعدله برهان ، والذى لايستطيعه أحد من خلقك ولو اجتمع على أن يأتى بمثله الانس والجان ، فسبحانك من اله ليس أدل على ذاته مما دلل به عليها فيما أظهرت من حقيقتك ، وأبنت عن هويتك، وذلك فى قولك تباركت وتعاليت : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

بالامس تحدثت فيما سبق من هذه الصفحات والنفحات ، عما كان لك على يامولاى من فضل ، وعما أحققت من حق على أيدى أهل العدل ، فناجيتك فى ظلمات الظلم صابرا ، وفى اشراقات العدل شاكرا ، ولم تكن هذه المناجاة الا مرآة لنفسى، وصورة لما ملك على حسى ، والا تعبيرا ناطقا عما امتلا به قلبى من ولائى ووفائى وحبى ، وذلك كله فى احدى وقفاتى الاربع وهى وقفتى ببابك لائذا برحابك ، وهاأنذا أتحدث اليوم عن وقفتى الثانية التى كنت أقف فيها مع كتابك، وكنت ألتمس فيها من آياته البينات ، وألفاظه وعباراته المتسقات ، ومعانيه ودلالاته المشرقات ، غذاء قلبى ، وعزاء نفسى ، وضياء بصيرتى ، وجلاء سريرتى ، فماذا وجدت من هذا كله فى كتابك يامولاى .

انه يامولاى كما وصفته كتاب مبين ، لاريب فيه هدى للمتقين ، مشرق بأنوار الحق والهدى واليقين ، مفعم بأسرار العلم والخلق والدين ، مفيض على قلوب المؤمنين بك والموقنين به أدق الدقائق ، وأرق الرقائق ، محقق لكل من تدبره ودبر به نفسه ونفوس أشباهه ، السعادة القصوى والبهجة العظمى ، سواء أكان ذلك فى معاشه فى الدنيا أم فى معاده فى الآخرة ، ذلك بأن آياته البينات ، ليست من ألفاظ وعبارات ، ولا هى مؤلفة من جمل وفقرات ، ولا هى قد صيغت كما يصاغ أى كلام على أى من أوجه الصياغات: وانما هو القرآن الحكيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، أنزلته فى شهر رمضان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وأنزلته فى ليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر ، والتى تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر، والتى هى سلام حتى مطلع الفجر ، انه كما قلت يامولاى وقولك الحق «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» . وكما قلت تعاليت وتباركت مخاطبا نبيك عليه الصلاة والسلام (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد) ، وكيف لايكون ذلك كذلك وهو كما قلت سبحانك : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) .

فهذا يامولاى كتابك ، وتلك آياتك ، حسبها أنها آيات القرآن والكتاب المبين ، أنزلتها هدى وبشرى للمؤمنين ، وأرسلتها وعيدا ونذيرا للكافرين ، وجعلت منها رحمة وعونا للمظلومين ، وعذابا وحربا على الظالمين ، فالحمد لك على ماأنزلت من كتابك ولم تجعل له عوجا ، والحمد لك اذ أنزلته محكما قيما كاملا واذ جعلته عاما تاما شاملا ، واذ أرسلت به رسولك لينذر بأسا شديدا من لدنك ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا ، وينذر الذين كفروا وكذبوا وحنثوا ، وظلموا عدوانا .. وافتروا بهتانا ، «كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » . ولكنك سبحانك أردت بآياتك ، وقصدت من كلماتك ، أن تحق الحق وتقطع دابر المسيئين المبطلين ، وان تزهق الباطل وتؤيد المحسنين المحقين ، فقد قلت فى كتابك وقولك الحق لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، (يجادلونك فى الحق بعد ماتبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم) . وقلت : (والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) . وقلت (ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لايحب كل خوان كفور ، أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز) .

سبحانك هذا كتابك : عرفت فيه من السبل أقومها ، ومن الوسائل أكرمها ، ومن الامثال أحكمها ، ومن الاخلاق أعظمها ، ومن المعارف أدقها ومن اللطائف أرقها ، ومن المعانى أسماها ، ومن المبادىء أهداها ، فهو بهذا كله لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، وهو من أجل هذا كله لم يترك نفسا سواها الا بين كيف ألهمتها فجورها وتقواها ، وهو قبل هذا كله وبعد هذا كله تذكرة للذاكرين ، ومغفرة للمستغفرين ، وقوة للمستضعفين ونصرة للمستنصرين ، كل آياته أنهار من علم اليقين ، وأسرار من حق اليقين ، وأنوار من عين اليقين ، فسبحانك .. سبحانك من منزل هذا الكتاب المبين على عبدك ورسولك الامين ، وسبحانك سبحانك اذ جعلت من هذا الكتاب هدى ونورا ، لمن كان له قلب وكان من المؤمنين ، واذ جعلت منه نظاما ودستورا لامة واحدة مذ نزل الى يوم الدين ، ووضعت الذين كفروا به ، ونأوا بجانبهم عنه فى أسفل سافلين ، ورفعت الذين آمنوا به ، وأقبلوا عليه وتحققوا بحقائق ألفاظه ومعانيه ، وحققوا فى أنفسهم أغراضه ومراميه الى أعلى عليين

سبحانك هذا كتابك : ذكرت فيه الاثم والعدوان ، والبغى والطغيان ، والاجحاف والاسراف فى الميزان ، وذكرت فيه السلم والعدل والقسط

والقسطاس والانصاف فى الحكم بين الانسان والانسان ، وبينت للناس ماينبغى أن يتحلوا به من هذه الفضائل ، وما ينبغى أن يتخلوا عنه من تلك الرذائل، وأنذرت الآثمين العادين ، والباغين الطاغين ، والمجحفين المسرفين بما أعددت لهم من سوء العذاب ، وبشرت المسالمين العادلين ، والمقسطين المنصفين ، والمصلحين بين الناس المحسنين ، بما كتبت لهم من حسن المآب فقلت وقولك الصدق فى حق ماأحصيت من رذائل ، وحق ما استقصيت من حال أهلها ، وما حرمت منها ، وحرمت عليهم من أخذ بها ، قلت : (قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالاتعلمون) • وقلت (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) وقلت (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) وقلت فى حق الذين لايرعون ذمة ، ولا يحفظون لك عهدا ، ولا يوفون لخلقك وعدا ، فسادا وافسادا بين عبادك ، قلت : (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون مأأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) ، وكما نهيت عن البغى والظلم ، ولعنت الباغين الظالمين ، وحرمت الاثم والعدوان ، وتوعدت الآثمين العادين ، فقد أمرت بالعدل والقسط والاحسان واقامة الوزن بالقسطاس المستقيم ، ووعدت من يحققون أوامرك فى هذا كله ، ويخافونك ويخشون سوء الحساب، بأن لهم الجنة ولهم حسن المآب ، فقلت : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) ، وقلت : (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون ... وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط، ان الله يحب المقسطين)، وقلت :(ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا) ، وقلت : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون مأأمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) • وقلت (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط • لاتكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) •

سبحانك هذا كتابك : صورت فيه الانسان الناقص فوصفته بما يبغض فيه النفوس وينفر منه القلوب ، ودعوت الى محاربته ومجانبته ، ونهيت عن طاعته ومتابعته ، فقلت : (ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ،مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه

آياتنا قال أساطير الاولين ، سنسمه على الخرطوم) . ودعوت الى الاستعاذة بك من شر ماخلقت انسانا كان أو جانا ، فقلت: (قل أعوذ برب الفلق،من شر ماخلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد اذا حسد) . وصورت الانسان الكامل من خلال ماأظهرت من معنى البرفقلت : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صبروا وأولئك هم المتقون »

سبحانك هذا كتابك : ماأحسنه وأبينه وما أكمله وأشمله ، وما أروعه وأبدعه ، وما أعظمه وأحكمه ، تدبرته فأحسنت به تدبيرى ، واستنرت به فأحسنت تنويرى واستمسكت به فاستمسكت بالعروة الوثقى ، واستروحت به فظفرت بالراحة القصوى ، وتواعدت به معك فصدقت وعدك ، وتعبدت به لك فنصرت عبدك ، واستعذت به من خصوم الحـــق وأنصار الباطل فأعذتنى ، وتوسلت به اليك فأعززتنى ، واعتصمت منه بحبلك فعصمتنى، وما ذلك الا من وقفتى مرة ببابك ، ومرة مع كتابك ، وتارة عند سيرة أحب أحبائك وتارة مع أحاديث أصفى أصفيائك ، وما كان ذلك الا آية من آيات عدلك ، والا نفحة من نفحات فضلك ، وما الفضل الا بيدك تؤتيه من تشـاء وأنت الواسع العليم وتختص برحمتك من تشاء وانت ذو الفضل العظيم ، فسبحانك سبحانك ذلك هو رحابك فما أكرم المستظلين بظله ، وهذا هو كتابك فما أعز الناهلين من فضله .

محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف
بآداب القاهرة

طريق الوصول

يقول الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى فى الفتوحات :
« ان طريق الوصول الى علم القوم ، الايمان والتقوى ..
ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، والرزق نوعان ، روحانى وجسمانى . قال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » أى يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بالوسائل من العلوم الالهية .